الباب الثاني عشر

سيرة سُنّ على

أما الظالم الأكبر ، والفاجر الأشهر (سُنّ على) برفع السين المهملة ، وكسر النون المشددة ، كذا وجدته مضبوطاً فى (ذيل الديباج) للعلامة أحمد بابا رحمه الله تعالى ، فإنه كان ذا قوة عظيمة ، ومتنة جسيمة ، ظالماً ، فاسقاً ومُتعدياً ، مُتسلطاً ، سفاكاً للدماء . قتل من الخلق ما لا يُحصيه إلا الله تعالى ، وتسلط على العلماء والصالحين بالقتل والإهانة والإذلال .

قال العلامة الحافظ العلقمى رحمه الله تعالى فى شرح الجامع الصغير ، للجلال السيوطى . عند ذكر حوادث القرن التاسع : سمعنا أن رجلاً ظهر بالتكرور ـ يُقَال له سُن على ـ أهلك العباد والبلاد ، ودخل فى السلطنة سنة تسع وستين وثمانمائة .

ورُوى عن أبى البركات وولىّ الله تعالى الفقيه القاضى محمود بن عمر بن محمد أقيت أنه سبق مولده ، ولايته بسنة نعم . وقد رأيتُ فى كتاب الذيل [1] أنه وُلد رحمه الله تعالى سنة ثمان وستين وثمانمائة . وتوفى فى سنة خمس وخمسين وتسعمائة ، ليلة الجمعة سادس عشر رمضان . انتهى .

ومكث فى السلطنة إما سبعاً وعشرين أو ثماني وعشرين سنة فاشتغل بالغزوات ، وفتح البلدان ، فأخذ جنى ، وأقام فيها سنة وشهراً . وفتح جنج وأباح لدرمكى الدخول راكباً وغرفاً فوق غرف ، وكلاهما ليس لأحد إلا لأمير سغى وحده .

(غزوات سُنّ على)

وفتح بر ، وأرض صنهاجة نونو وأميرهم ، يومئذ الملكة بيكن كاب . وفتح تنبكت ، والجبال كلها إلا دم ، فامتنعت له وفتح أرض كنت ، وعزم إلى أرض برك ، فلم يقدر ذلك له . وكان آخر غزواته أرض كرم ، ولما تولى السلطنة كتب له تنبكت

---

(١) كتاب الذيل : هو كتاب أحمد بابا التنبكتى . واسم الكتاب هو (نيل الابتهاج فى تطريز الديباج) وجعله تذييلاً لكتاب ابن فرحون (الديباج المذهب) وهو تراجم لعلماء المالكية .

كى ، الشيخ محمد نض كتابه بالسلام والدعاء ، وطلب منه أن لا يخرج باله معه لأنه من جملة عياله .

ولما توفى وتولى ابنه عمر ، كتب له بعكس ما كتب أبوه . وقال له : القوة متوفرة عنده ، ومنْ تعرض له يرى ما معه من تلك القوة . فقال سُنٍّ على لأصحابه : شتان ما بين عقل هذا الفتى وبين عقل أبيه . والذى بين كلامهما من التفاوت ، هو الذى بين عقولهم .

(دخول سُنٍّ على تنبكت وتدميرها)

وفى سنة ثلاث وسبعين وثمانمائة دخل تنبكت ، فى رابع رجب الفرد أو خامسه وهى رابع سنة ، أو خامس سنة من دخوله فى السلطنة عمل فيها فساداً عظيماً ، جسيماً ، كبيراً ، فحرقها وكسرها وقتل فيها خَلقاً كثيرة ، ولما سمع اكل بمجيئه أحضر ألف جمل .

رحل فقهاء سنكرى ، ومشى بهم إلى بير . فقال : إن شانهم هو الأهم عليه . ومشى فيهم الفقيه عمر بن محمد اقيت وأولاده الثلاثة المباركون الفقيه عبد الله والفقيه أحمد وهو أكبرهم ، والفقيه محمود وهو أصغرهم سناً ، وهو ابن خمس سنين يومئذ لا يقدر على الركوب ولا يقدر على المشى على رجله ألا يحمل على الرقبة . حد مكنكى هو حامله حتى صلوا وهو عبد لهم ، ومشى فيهم خالهم الفقيه المختار النحوى بن الفقيه اند غمحمد . وأدرك الإمام الزمورى رحمه الله تعالى فى بير . فأجازه كتاب الشفاء للقاضى عياض رحمه الله تعالى .

(مظاهر اضطهاد العلماء فى تنبكت)

ويوم الرحيل ترى رجلاً كبيراً بلحيته ، إذا أراد أنْ يركب الإبل يبقى يرتعد خوفاً منه ، وإذا ركب طاح على الأرض عند قيامه ، لأن الأسلاف الصالحين أمسكوا أولادهم فى حجورهم حتى كبروا ، ولا يعرفون شيئاً من أمور الدنيا لعدم لعبهم فى حال صغرهم لأن اللعب حينئذ يكيس الإنسان ، ويبصر فى كثير من الأشياء فندموا عند ذلك ، وبعدما رجعوا لتنبكت خلوا بينهم وبين اللعب ، وأطلقوهم من ذلك الإمساك .

فاشتغل الظالم الفاسق بقتل منْ بقى منهم فى تنبكت وإهانتهم ، وزعم أنهم أحباء التوارق وخاصتهم فأبغضهم لذلك ، فسجن والدة الفقيه محمود ست اند غمحمد . وقتل أخويْها الفقيه محمود ، والفقيه أحمد ابنى الفقيه اند غمحمد ، وأكمل يتبعهم إذاية بعد إذاية ، وإهانة بعد إهانة . والعياذ بالله .

وأمر يوماً بإتيان ثلاثين من بناتهم الأبكار ، ليتخذهنّ جاريات وهو فى مرسى كير ، وأمر أنْ لا يأتين إلا على أرجلهن ، فخرجنَ وما برزنَ من الخدور قط ، وخدامه معهن يسوقهن ، حتى وصلنَ موضعاً عجزنَ عن المشى كلية ، فبعث له بخبرهنَّ ، فأمر بقتلهنّ جميعاً والعياذ بالله . والموضع فى قرب امظع من جهة المغرب يُقال لها : فناء الأبكار .

وبعد رحيل الفقهاء إلى بير ، قلد القضاء القاضى حبيب ، حفيد السيد عبد الرحمن التميمى ، وبالغ فى تعظيم ابن عمه المامون والد عماراد المامون ، حتى لا يقول له إلا أبى . وبعد موته حين شرع الناسُ فى ذكر مساويه . يقول المامون : لا أقول فى سُنّ على سوءاً ، إلا أنه أحسن إلىَّ ولم يعمل فىَّ سوءاً ، كما عمله فى الناس ، لا يذكره بحُسْن ولا قُبْح ، فعظم قدره عند أبى البركات الفقيه محمود بذلك لأجل عدالته .

ولم يزل يقتل فيهم ويُذلّهم إلى العام الخامس والسبعين والثمانمائة . خرج منْ بقى من أهل سنكرى هاربين إلى بير أيضاً ، فجعل تنبكت كى المختار محمد بن نض فى إثرهم فوصلهم فى تعجت فتقاتلوا ومات فى ذلك خيارهم ، وهى الوقعة المعروفة بها .

ثم التفت إلى أولاد القاضى الحى ، الذين فى الفع كنك ، فعاملهم بالإهانة والإذلال ، فهرب كثير منهم وتوجّهوا إلى تكدة ، وذكر أنهم ما توجهوا بتلك الناحية إلا ليستغاثوا بالتوارق ، ويأتوا بهم لأجل الانتقام منه ، فعمل السيف فيمنْ بقى هنالك ، وقتل منهم كثيراً وسجن فيهم رجالاً ونساء ، والعياذ بالله .

وقيل من أجل ذلك : لا يصب المطر فى ذلك المكان صباً نافعاً إلى الآن . وهرب من خيارهم ثلاثون رجلاً فتوجّهوا إلى جهة المغرب ، وهم فى ذلك الهروب إلى يوم واحد وصلوا بلد شيب ، فنزلوا هنالك تحت شجرة قائلين صُوّماً ، فناموا ثم انتبه واحد منهم فقال : رأيتُ فى نومى هذا كأننا جميعاً ، مفطرون الليلة فى الجنة . ولم يُتم

كلامه فإذا رسل الظالم ، الفاجر راكبين على خيلهم فقتلوهم جميعاً والعياذ بالله ، رحمهم الله تعالى ورضى عنهم أجمعين .

وأوقف الفقيه إبراهيم ، صاحب الفع كنك بن أبى بكر ابن القاضى الحى يوماً واحداً فى الشمس فى ذلك الموضع إهانة له وتعذيباً ، فرأى والده أبا بكر المذكور فى المنام ، ويضربه بعكازه ضرباً وجيعاً ، ويقول : شتّت اللهُ أولادك كما شتت أولادى . فاستجاب الله ذلك الدعاء فيه ، أما الذين هربوا منه فى الفع كنك إلى تكدة فبقوْا هنالك ، ساكنين ، متوطنين .

(موقف سُنِّ على من العلم والعلماء بصفة عامة)

ومع هذه الإساءة كلها التى يفعل بالعلماء ، يُقرّ بفضلهم ويقول : لولا العلماء لا تحلو الدنيا ولا تطيب ، ويفعل الإحسانُ فى آخرين ويحترمهم . ولما غار على الفلانيين من قبيلة سنفتير بعث كثيراً من نسائهم لكبراء تنبكت وبعض العلماء والصالحين هدايا لهم ، وأمرهم أنْ يتخذوهم جوارى .

فمَنْ لا يرعى أمر دينه اتخذها ذلك ، ومنْ يرعى أمر دينه تزوَّج منهنّ جد جدتى أم والدى . السيد الفاضل الخيِّر الزاهد الإمام عبد الله البلبالى ، تزوَّج التى بعثها له واسمها عايشة الفلانية ، وولد منها نانا بير تورام أم والدى ، وأدرك الوالد هذه العجوز قد كبرتْ جداً وعميتْ .

(علاقة سُنِّ على بالشريعة الإسلامية)

ومن أخلاق هذا الظالم الفاسق التلاعبُ بدينه ، يترك خمس صلوات إلى الليل أو إلى الغد ، ثم يُومى قاعداً مراراً متكررة ، ذاكراً أسماءهم ثم يُسلِّم تسليمة واحدة ، ويقول : أنتنَّ تعرفنَ بعضكن بعضاً فاقتسمْنَ .

(أخلاقه وعلاقته بمَنْ حوله)

ومن أخلاقه أنه كان يأمر بقتل إنسان ، ولو كان أعزّ الناس عنده بلا سبب ولا موجب ، ثم يندم على بعضهم وخدامه الذين يعرفون أخلاقه إذا كان المأمور بالقتل ممنْ سيندم عليه ، ادخروه ، واحفظوه ومتى أظهر الندامة قالوا له : لقد حفظناه لك ولم يمُتْ فيفرح ساعتئذ ، كما فعل ذلك بخديمه اسكى محمد غير مرة .

كم أمر عليه بقتله وكم أمر عليه بحبس وهو يعكس عليه فى بعض الأحيان لقوة قلبه وشدة جرأته ، التى جعل الله ذلك فيه جبلة وطبيعة . ومتى نزلتْ به شدة منه جاءت أمه كاسى إلى نانا بنت ابنه الفقيه أبى بكر بن القاضى الحى فى تنبكت ، تطلب له الدعاء عندها أن ينصره اللهُ تعالى ، على سُنِّ على ، إذا تقبَّل اللهُ هذا الدعاء ، يُفرحكم فى أولادكم وأقاربكم إنشاء الله فوفَّى بالعهد عند ولايته .

وأما أخوه عمر كمزاغ ، فهو يطيعه غاية الطاعة ، لأنه كان عاقلاً لبيباً وما تعرض له الظالم بالسوء قط ، وكما فعل ذلك أيضاً بكاتبه إبراهيم الخضر ، وهو فاسى جاء لتنبكت وسكن فى حومة الجامع الكبير على جهة اليمين مائلاً إلى جهة المغرب قليلاً فرتّبه كاتباً ، أمر يوماً بقتله وأكل جميع أمواله ، فنفذ أمره ولكن ادخره الخدام إلى يوم واحد .

جاءه كتاب الرسالة ولم يكُنْ عنده قارئ ، فقال : إنْ كان إبراهيم كبيرَ البطن حياً لم نتوحّل فى هذا الكتاب ، فقالوا له : هو حَيٌّ ادخرناه ، فأمر بإحضاره فقرأ الكتاب ورده فى خطته وأعطاه ضعفَ ما ضاع له من مال . ولم يجد السكون والهنا إلا فى مدة اسكيا محمد ، فأبقاه فى مقامه عزيزاً ، مُكرّماً إلى أنْ توفى ، فخلفه فى ذلك العام ابنه حوى ، ولكن رجع كاتباً لناظر اسكيا فى تنبكت فى رتبة عظيمة وقدر مكين .

(حوادث عام ٨٨٢هـ)

ودخل فى كبر سنة اثنين وثمانين وثمانى مائة ، وهى السنة التى دخل موش فى سام ، وكان سُنٍّ على فى تسك سنة أربع وثمانين وثمانمائة . وفى هذه السنة ولد ايد حايد ابن أخت الفع محمود . وفيها صام هو رحمه الله ، قال عن نفسه الله أعلم سبعة عشر عاماً .

وخرج من كبر سنة خمس وثمانين وثمانمائة ، وفيها دخل موش فى بير فى جُمادى الأول وخرج فى جُمادى الثانية ، حاصرهم شهراً فطلب منهم الزوجة فزوَّجه ابنه السيد الفاضل اند نض ، فبقيت عنده إلى دولة اسكيا . اند نض بن على بن أبى بكر الحاج محمد ، فاستخلصها من أيديهم بعد ما حارب موش وخربهم فزوّجها .

وبعد الحصران قاتل موش مع أهل بير فغلبهم وسبى عيالهم وذهبوا فتتبعهم أهل بير وقاتلوهم وأنقذوا العيال منهم وعمر بن محمد نض هنالك يومئذ ، وهو أشد

نجدة وشجاعة فى المقاتلة ، وهو أول مَنْ بلغ موش كى ، وضايق عليه حتى سلم فى العيال .

وفى هذه السنة خرج الفُع [1] محمود من بير ، فى شهر شعبان ، ورحل إلى تنبكت وذكر رحمه الله تعالى أنه قرأ رسالة ابن أبى زيد على يد حامد حتى بلغ ركعتى الفجر ، فجاء موش وقرأ منه شيئاً على أحمد بن عثمان ونسى منْ ختمها عليه ، ثم بدأ قراءة التهذيب على أخيه ورجع أيضاً إلى تنبكت وخاله الفقيه المختار النحوى . وأما والده الفقيه عمر بن محمد اقيت فقد تُوفى هنالك .

ولَّما سكن فى تنبكت بعد ذهاب دولة الظالم ، كتب لأخيه الفقيه عبد الله ، وهو فى تازخت قرية فى قرب بير ، فأمره أن يأتى لتنبكت فكتب إليه أنه لا يأتيها ، لأن أهل سنكرى قاطعوا الأرحام ، وظئر الأولاد ، تفرقون بين أربابهن بالنميمة وأيضاً لا يسكن حيث كان ذرية سُنِّ على .

وإذا كان راجلاً إليها ولا بد لا يسكن إلا فى حومة الجامع الكبير ، فى جوار السلطان الوجلى والد عمر بير لأن أخلاقه حسنة ، ورضى عنه حين تجاورا فى تازخت ونُفى هنالك إلى أنْ تُوفّى رحمه الله ، وأعاد علينا من بركاته ، فلازم أبو البركات الفقيه محمود حين سكن تنبكت القاضى حبيب فى أخذ العلم إلى أنْ توفى فهو شيخه ، ووصَّاه أنْ يكون قاضياً بعده ، وأنْ لا يغشى أبناء الدنيا فى مساكنهم ، وما ذلك إلا لأجل رفع الضرر عن الضعفاء والمساكين ، وأنه رأى هذا الذى يترتب فيها فامتثل وصيته رحمهما الله تعالى ونفعنا بهما فى الدارين .

ثم شرع فى حفر بحر راس الماء للوصول إلى بير فى البحر ، وهو يشتغل بذلك بالجد والاجتهاد وفى قوة عظيمة ، فإذا الخبر جاءه أن موش كى عازم إليه فى جيشه بغزو ، وأدركه الخبر فى الموضع الذى يُقال له شن فنس فانتهى فيه ، وكفى اللهُ تعالى أهل بير شرَّه فرجع علاقات موش كى ، فالتقى معه فى جنكى تعى قرية فى قُرْب بلد كب من وراء البحر ، فاقتتلوا هنالك ، فهزمه سُنِّ على وهرب وتبعه حتى دخل فى حدِّ أرضه .

وذلك فى سنة ثمان وثمانين وثمانمائة ، ثم رجع ونزل فى دبر ، ثم نهض منه لفتح

---

(١) الفع : معناها الفقيه .

الجبال كما مرّ ، ثم غزا كرم فغلبهم وخربهم وهى آخر غزواته ، وأصلح السور الذى فى كير المُسمَّى تل حين خرج من بتر سنة تسعين وثمانمائة .

(حوادث سنة ٨٩٠هـ)

وفيها شرَّق الحاج أحمد بن عمر بن محمد اقيت للحج ، ورجع فى فتنة الخارجى سُنٍّ على ، قاله العلامة أحمد بابا فى الذيل .

(حوادث سنة ٨٩١هـ)

وفى سنة إحدى وتسعين وثمانمائة ، أخذ تنبكت كى المختار ابن محمد نض وسجنه . وفى سنة إحدى وتسعين ذكر اسم سُنٍّ على فى عرفة ، والفقيه عبد الجبار كك حاجز سنة اثنين وتسعين وثمانمائة فدعا الله تعالى عليه فدخل فى نقصان حتى ذهبتْ دولته ، وكان تنسَّك فى سنة ثلاث وتسعين وثمانمائة .

(حوادث سنة ٨٩٣هـ)

وفى هذه السنة دخل أهل تنبكت فى هوكى ، ومكثوا فيها خمس سنين ، منهم ولىُّ الله تعالى سيدى أبو القاسم التواتى وأبو البركات الفقيه محمود ، وأخوه الحاج أحمد وغيرهم رحمهم الله تعالى ، ومات مودب زنكاس سنة أربع وتسعين وثمانمائة .

(حوادث سنة ٨٩٨هـ)

وفى سنة ثمان وتسعين وثمانمائة توفى سُنٍّ على بن سن محمد داعوا راجعاً من غزوة كرم بعدما حارب الزغرانيين والفلانيين وقاتلهم ، ولمَّا وصل بلاد كرم فى رجوعه انطلق عليه سيلٌ هنالك فى الطريق يُسمى كن فأهلكه بقدرة القادر المقتدر فى خامس عشر من المحرم الحرام فاتح عام الثامن والتسعين والثمانمائة من الهجرة ، فشقَّ أولاده بطنه وأخرجوا أحشاءه [1] وملئوه عسلاً لئلا ينتن على زعمهم ، جعل الله تعالى ذلك مُجازاة لمَا كان يفعل بالناس فى حياته أيام تجبُّره فنزل عسكره فى بنبى .

---

(١) يقر بعض المؤرخين بأن لشعب السنغاى علاقات بمصر القديمة ، ومنهم من قال : إن أصول السنغاى تعود لهجرات مصرية تمت فى العصر الفرعونى ، ولعل عادة التحنيط قد وصلت إلى هذه المنطقة عبر هذه الهجرات .